

كلمة التحرير

بناء الوعي بواقع الفكر التربوي المعاصر وضرورة إصلاحه

هيئة التحرير

1. الوعي بالواقع التربوي: مفهومه وأهميته

الوعي بالواقع حالة تصف الإنسان الذي يتَّصف بهذا الوعي بأنه يُحيط بالواقع، ويُميِّز عناصره ومكوناته والعلاقات القائمة بينها والمؤثرات التي تؤثر فيها، ويدرك حاجة هذا الواقع إلى التغيير والإصلاح. ونحن نحتاج إلى الوعي بالواقع في ميادينته المختلفة؛ فثمة واقع سياسي، وواقع اقتصادي، وواقع تربوي، وهكذا. فالوعي إذن وصف لحالة الإنسان الواعي بذاته وبما يحيط به.

والوعي في اللغة هو الجمع والفهم والحفظ؛ فالأذن الواعية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ليست الأذن التي أحسَّت بالأصوات إحساساً مادياً، وإنما الأذن التي فهمت وعقلت ما سمعت، ثم انفعت به وانتفعت به.¹ فصيوان الأذن يجمع الأمواج الصوتية الواردة إليه من مصدرها، ويوجهها إلى مركز الفهم والإدراك لدلالة الصوت ومعناه، ويتفاعل مع هذا المعنى تأثراً وتأثيراً، ثم يحتفظ الإنسان في ذاكرته بهذا الحدث وما كان له من تأثر وتأثير ليستدعيه كلما اتصل موضوعه بما له صلة به. والرسول ﷺ دعا بالخير لمن يسمع مقالته فيعيها ثم يبلغها عنه.²

¹ قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَهَا أَذُنًا تَذَكَّرُ وَيَعِيهَا أذُنٌ وَرَعِيَةٌ﴾ (الحاقة: 12)

² الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، **الجامع الصحيح**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ج5، حديث رقم 2657، ص33. نص الحديث: عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يحدث عن أبيه قال: قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "نصّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع، فربّ مبلغ أوعى من سامع." وفي رواية أخرى للراوي نفسه: "نصّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فربّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه..." انظر:

- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ج5، حديث رقم 2658، ص34.

والوعي بالواقع يتضمن هذه العناصر الثلاثة: الجمع والفهم والحفظ، ويتضمن كذلك الوعي بعلاقة هذه العناصر بثلاثة عناصر أخرى، هي: الواقع كما هو، وحاجة هذا الواقع إلى التغيير، والصورة التي يراد أن تنتقل حالة الواقع إليها. وبهذا الوعي بالأمرين معاً، يمكننا أن نتحدث عما نسميه "الوعي المنهجي" الذي تتوفر به متطلبات التخطيط لتغيير حالة الواقع القائم نحو الواقع المنشود، ويتحدد المنهج المناسب لذلك. وبهذا النوع من التخطيط نأمل أن يتّصف سعيماً في الإصلاح التربوي، بالمنهجية السننية الهادفة، بعيداً عن ردود الفعل، وضغوط الحاجة العاجلة إلى القرار، فيكون البدء من حيث يلزم البدء أن يكون، وتوظّف الوسائل والأساليب والإمكانات المتاحة بما يلزم من كفاءة وفاعلية، ويتّصف السعي في الإصلاح باستقامة وثبات وأناة وصبر على المعاناة حتى تتحقق الأهداف المنشودة.³

ومن الإنصاف إن نؤكد حضور بعض صور هذا الوعي وبعض تمثلاته عند أفراد من التربويين في العالم العربي والإسلامي، لكنّه في كثير من الأحيان وعيٌّ جزئيٌّ، لجانب من جوانب الواقع، يستند إلى الانفعال بالتخصص العلمي أو العملي، ويقف عند حدود وصف الظاهرة، وتقدير أبعادها، ويتّصف بالعفوية والتلقائية، لكن المنشود هو الوصول بالوعي المنهجي إلى حالة من الوعي الكلي الذي يستند إلى التدبّر الهادف، ويحتكم إلى رؤية كلية للعالم، ويُعمل المعيار القيمي والمسؤولية الأخلاقية، ثم يتمدد هذا الوعي في مساحاته، ويتعمق في درجته حتى يصبح الوعي المنهجي "ثقافة منهجية حيّة" لسائر المعنيين بإصلاح واقع الأمة.

وحتى يصبح الوعي المنهجي بضرورة الإصلاح التربوي ومتطلباته "ثقافة منهجية حيّة" لا تخص التربويين دون غيرهم من فئات المجتمع، فلا بد من الوعي بطبيعة العلاقة بين التربية والمجتمع، وتحويل الإجماع على شدة الترابط بينهما إلى أن يكون عنصراً أساسياً في خطط الإصلاح التربوي والاجتماعي. فتطوير النظم التعليمية يتم عن طريق نظريات اجتماعية متنوعة، تتناول الحراك الاجتماعي والتوزيع الطبقي، والتغيير الاجتماعي، وبرامج

³ ملكاوي، فتحى حسن. منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2016م، الفصل الثاني بعنوان: الوعي المنهجي والخلل المنهجي، ص113-128.

التمنية. ثم إن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية تؤثر تأثيراً كبيراً في صياغة أهداف المؤسسات التعليمية وهيكلها ومناهجها وممارساتها. وكثير من الدراسات التربوية تتناول النتائج التعليمية وأشكال ارتباطها بعوامل اجتماعية مختلفة كالجنس والعرق والحالة الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.⁴

وحتى لا نذهب بعيداً في أحلام وردية، وبتخييل صورة مثالية طوباية يصعب أن تتحقق، فإنَّ علينا أن نستدرك بالقول إنَّ التربية عملية في غاية التعقيد تشتمل على العلم والتعلُّم والتعليم، وأعد ما فيها أنها تحتاج إلى نمو دائم وتطور مستمر، فليس ثمة سقف للتحسين والتطوير في محتوى العلم، أو خبرات التعلُّم، أو أساليب التعليم؛ "وقل رب زدني علماً."

ثم إنَّ التربية ليست نتيجة ما تقدمه مؤسسة واحدة من مؤسسات المجتمع، بل إنَّ ميدان التربية هو المجتمع بمؤسساته كلّها، ولا سيما الأسرة والمدرسة والإعلام. فالنجاح في تحقيق حالة تربوية سليمة يتطلب تكامل جهود هذه المؤسسات. ومن ثمَّ فليس من المتوقع أن يتحقق الإصلاح التربوي المنشود في المجتمع حين تقتصر جهود الإصلاح على التعليم المدرسي مثلاً، في الوقت الذي تهدم فيه مؤسسات المجتمع الأخرى ما تبنيه المدرسة، فالإصلاح عملية شاملة تتناغم عناصرها وتتساند خطواتها، والإصلاح التربوي جزء من هذه العملية، لكنه الجزء الأكثر أهمية وعمقاً.

ونحن نرى أنَّ البحث عن درجة وعي الأمة الإسلامية بحقيقة واقعها العلمي والفكري والمادي، وواقع العالم من حولها في هذه المجالات وغيرها أمرٌ مهمٌّ للغاية؛ إذ من المتوقع أن يؤثر هذا الوعي في الطريقة التي تصوغ فيها الأمة نظمها التربوية والتعليمية وتطوّر فكرها التربوي الذي يُعدُّ أجيالها لمواجهة مشكلاتها الداخلية، والمخاطر والقوى المعادية لها، ومن ثم نفهم درجة الكفاءة التي كانت الأمة تقابل بها هذه المشكلات والقوى في الحقب التاريخية المتعاقبة. كما يمكن أن يؤدي البحث في درجة الوعي هذه إلى فهم أسباب عجز نظم التعليم والتربية، التي سادت حياة الأمة في القرون الثلاثة الأخيرة، عن حماية الأمة

⁴ Emmanuel, Jean Francois. *Education and Society*, In: *Building Global Education with a Local Perspective*, New York: Palgrave Macmillan 2015, pp. 1-15.

من الوصول إلى حالة الضعف والجهل والتجزئة، التي أغرت الدول الأوروبية الصاعدة لاستعمار معظم بلاد المسلمين، وتقسيم المقسّم منها، والاستيلاء على ثرواتها، والإعلاء من الثقافة والنظم والقيم الغربية فيها، على حساب الثقافة والنظم والقيم الإسلامية.

2. الوعي بضرورة إصلاح الواقع التربوي

إنّ الوعي الكامل بالظروف التي تحيط بجهود الإصلاح التربوي شرطٌ مهمٌّ في التخطيط لهذه الجهود وتقدير مستويات النجاح المنشودة في تحقيق أهدافها، لا سيما أنّ هذه الظروف لا تقتصر على عدد محدود من القضايا التربوية أو العوامل الاجتماعية المحلية، فالعالم المعاصر عالمٌ شديد التعقيد، سريع التغيّر، تتجاوزه اتجاهات فكرية وقيمية متقلّبة، ومجتمعات هذا العالم متشابكة، وتتبادل التأثير والتأثر بصورة مستمرة. ومع أنّنا نجد في هذا العالم نظريات ونظماً سياسية واقتصادية وإدارية مختلفة، فإنّ ثمة جهوداً للأخذ ببعض الملامح العامة المشتركة التي تتضمنها اتجاهات العولمة، أو تفرضها القوى التي تقود هذه الاتجاهات، رغباً أو رهباً! ولذلك فليس من السهل أن تتحدد ملامح مجتمعاتنا القائمة اليوم واتجاهات التغيّر فيها، دون وعي كافٍ بالقوى المؤثرة على هذه المجتمعات. ومن ثمّ فليس من السهل الحكم على الفكر التربوي السائد في مجتمعات المسلمين من نظرة سطحية عاجلة.

ومع ذلك فإنّ بإمكاننا أن نتحدّث عن حضور المعاني العامة للتربية في حياة الأفراد في هذه المجتمعات؛ فثمة روح كامنة تتلبّس النفس الإسلامية اللوامة تجعلها تحنّ وتمنّي أن تصطبغ بتربية الإسلام قولاً وعملاً، وثمة نوازع بشرية تتلبّس النفس الأمّارة بالسوء وتدفعها للتخفّف من أحكام الإسلام التربوية تماهياً مع الواقع التربوي لغير المسلمين الذي يبدو زاهياً جذاباً، ولا نعدم وجود النفس المطمئنة التي تشعر بالرضا في جهودها الحثيثة لتطبيق التوجيهات التربوية الإسلامية. وربما يفيد إجراء دراسات ميدانية تحدّد الثلّة، والقليل، والكثير، من أيّ من هذه الفئات الثلاث في كلّ مجتمع من مجتمعات المسلمين.

هذا عن ضرورة الوعي بواقع الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، وهو وعي يشترط بالضرورة نوعاً آخر من الوعي، وهو الوعي بالحاجة إلى إصلاح هذا الواقع. وسوف نلاحظ أنّ الناس قد يختلفون في مناقشاتهم حول واقع مجتمعهم وقضايا سوء الأحوال الاقتصادية، وظروف العمل والبطالة، والجدل السياسي حول قضايا سياسية محلية أو إقليمية أو دولية، لكنهم لا يختلفون حول أهمية التربية، سواءً في الطريقة التي تتأثر بها نتيجة أحوال المجتمع أو التغيير الذي يمكن للتربية أن تحدثه في المجتمع.

ومن هنا تأتي أهمية الحديث عن ضرورة الإصلاح في الفكر التربوي، والوعي بالعمق والتشعب الذي لا بد أن يرافق هذا الحديث، ولا سيما في حاجة هذا الفكر إلى استمرار التحديث والتطوير ليواصل الاستجابة لمتطلبات النمو والتطور والتغير في واقع المجتمعات الإسلامية، ولتمكين هذا الفكر من تناول الموضوعات الأساسية التي تشكل الملامح العامة المتمثلة في النظم التربوية العامة وما تقوم عليه من فلسفات وسياسات ونظريات واستراتيجيات، واستيعاب تفاصيل النظام التربوي ومكوناته ومستوياته الإدارية والتعليمية، وما فيها من مرافق ووسائل وبرامج ومناهج وأساليب للتعليم والتكوين وغيرها.

وانطلاقاً من منهجية التكامل المعرفي التي نعتمدها في كتاباتنا، فإننا نقرّر، منذ البداية، أنّ الفكر التربوي الإسلامي المعاصر الذي نطمح إليه، لا بدّ من أن يستمد أهدافه وبرامجه من أربعة مصادر؛ القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتراث الإسلامي، والخبرة البشرية المعاصرة. فهو يهتدي بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية لأحكام الإسلام وتوجيهاته في العمل التربوي بفهمٍ مقاصديّ معاصر، ويستوعب في الوقت نفسه خبرة التراث التربوي الإسلامي والخبرة البشرية المعاصرة.⁵ أما الهدف الذي نسعى إليه من هذا الطموح فهو هدف مزدوج: تعزيز الخصائص الفكرية والحضارية للأمة الإسلامية

⁵ ربما يجد القارئ في بعض الكتابات أن تحديد مصادر العلم والمعرفة يأتي من مصدرين، الأول هو الوحي ويتضمن القرآن الكريم والسنة النبوية، والثاني هو العالم ويتضمن العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي والعالم النفسي. وأحياناً يجد في كتابات أخرى حديثاً عن أربعة مصادر، القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتراث الإسلامي، والتراث الإنساني المعاصر. وفي هذه الحالة فإن التراث الإسلامي هو جزء من الخبرة البشرية الخاصة بالمسلمين، والتراث الإنساني هو الخبرة البشرية العامة التي نصفها عادة بالخبرة الغربية (الأوروبية والأمريكية). والتراث الإسلامي والخبرة الغربية المعاصرة هما من العالم الاجتماعي في النوع الأول من الكتابات المشار إليها.

ومجتمعاتها، من جهة، وبناءً وغيها بمسؤوليتها عن الإسهام التربوي والعلمي والحضاري في المجتمع البشري المعاصر، من جهة أخرى. وشرط تحقيق ذلك أن يقوم الفكر الذي نطمح إلى إنتاجه، ونبذ في تصميم مشروعاته وبرامجه، على استيعاب الفهم المقاصدي لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وتجاوز الخبرة التاريخية للتراث الإسلامي والخبرة البشرية المعاصرة.

3. الوعي بمنطلقات الإصلاح التربوي

وفي سياق البحث عن واقع الفكر التربوي السائد في مجتمعاتنا الإسلامية، وطموحاتنا في بناء فكر تربوي إسلامي، نجد من المناسب أن نذكر ببعض المنطلقات التي لا بد أن تكون واضحة في تناولنا للواقع والطموح.

والمنطلق الأول في هذا الشأن هو أنّ إصلاح حال التربية والتعليم في مجتمعاتنا هو جزء من هدف الإصلاح العام لهذه المجتمعات، بل هو طريقة هذا الإصلاح كذلك. فنحن على وعي بالجدل المتواصل حول أثر المجتمع في تحديد موقع التربية فيه، وأثر التربية في تحديد واقع المجتمع، فعلماء الاجتماع والسياسة والتربية وغيرهم من دعاة الإصلاح العام يتوزعون على طريفي القضية، فعندما يرى بعضهم أن المجتمع لا يقوم دون تربية، فإنّ ذلك يعني أنّ التربية تأتي في الأهمية قبل المجتمع، وعندما يرى بعضهم الآخر أنّ التربية هي الصورة التي يعكسها المجتمع ويحدّد ملامحها، فإنّ ذلك يعني أنّ المجتمع يأتي في الأهمية قبل التربية. ولكننا لا نجد خلافاً جوهرياً حول وجود صلة قوية بين المجتمع والتربية، وأنّ طريفيّ الجدل في القضية يملكان قدراً من الحقّ فيما يريانه. وتكون إحدى الحُجَّتَيْن أقوى من الأخرى في سياقات محددة. وقد استقرت نظم التعليم العام في العالم المعاصر على اعتماد عدد من المبادئ مثل إلزامية التعليم العام، والتكامل بين مناهج التعليم اللازمة لبناء شخصية الإنسان الصالح المصلح، في جسمه وروحه وعقله، وإعداد الكفاءات العملية اللازمة لتحقيق النمو والتقدم في المجتمع، والإسهام في الحضارة الإنسانية وترشيدها، وغير ذلك من المبادئ التي يمكنها أن تجعل حالة التعليم العام في المجتمع تعبيراً عن مدى تقدمه وصلاحه أو تخلفه وفساده.

وثاني هذه المنطلقات أننا نرى أنّ من حق أبناء كل مجتمع من مجتمعاتنا المسلمة اعتزازهم بمجتمعهم، لكن ذلك لا يعني غضّ الطرف عن صورة التخلّف التي تتصف بها مجتمعاتنا المعاصرة. وهذا التخلّف هو في الغالب صفةً عامة يتّصف بها المجتمع بكامله، وتتنّصف به قطاعات المجتمع بما في ذلك قطاع التربية. والحكم بصفة التخلّف هو حكم عام مهما اختلف المعيار المستخدم في هذا الحكم؛ سواء كان معيار القياس هو المقارنة بين واقع المجتمع كما هو حالياً، بما كان ينبغي أن يكون عليه وفق التوجيهات الإسلامية، أو كان المعيار مقارنة هذا الواقع بالإمكانات المتاحة للإصلاح والتطوير والعجز عن توظيف هذه الإمكانيات، أو كان المعيار مقارنة واقع المجتمع الإسلامي بالمجتمعات الأخرى في التقدم الحضاري بجانبه المعنوي والمادي.

وثالث هذه المنطلقات أنّ أيّ جهد للإصلاح والتجديد والتغيير في واقع المجتمع يقوم على فهم هذا الواقع فهماً عميقاً يشمل المشكلات وأسبابها، والحاجات وأولوياتها، وسنن التغيير واتجاهاتها. ودون هذا الفهم العميق، فإنّ التغيير سوف يتم لا محالة؛ إذ التغيير سنّة قائمة دائمة، وإذا لم يكن التغيير وفق منهج يقود إلى النمو والتقدم، فربما يجري التغيير في اتجاهات تكريس التخلّف. ولعلّ من أهمّ ما ينبغي فهمه عن واقع أيّ مجتمع هو الصلة الوثيقة بين حالة المجتمع القائمة والمنشودة من جهة، والمكونات الفكرية والنفسية التي تعبر عن شخصية المجتمع، وما يميّزه عن غيره من المجتمعات من جهة أخرى.

ورابع هذه المنطلقات أنّه لا يكفي لفهم واقع المجتمع ملاحظات انطباعية وأحكام وصفية عامة، بل لا بدّ من دراسات تحليلية نقدية تتصف بالعمق والجرأة في سعيها لفهم حالة المجتمع في جوانبه وقطاعاته المختلفة، بما في ذلك الدرجة التي يتمتع فيها الإنسان بحريته وكرامته وحقوقه، وطبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد والجماعات، ومنظومة القيم التي تحكم سلوك الناس ومرجعيات هذه المنظومة، ومدى امتلاك المجتمع لحريته واستقلاله في القرار والاختيار، فضلاً عن حالة المجتمع فيما يختص بمستوى البحث العلمي في ميادين الزراعة والصناعة والتيسيرات المادية والتقدم الحضاري. فحالة المجتمع في كلّ ذلك تؤثر على الحالة التربوية للشخصية الإنسانية في المجتمع، ولا مناص لأيّ

إصلاح تربوي منشود من التعامل مع حالة المجتمع القائمة بهدف نقله إلى الحالة المنشودة.

وخامس هذه المنطلقات ضرورة تحديد العلاقة بين واقع الفكر التربوي الإسلامي والعصر أو السياق الزمني الذي تطور هذا الفكر فيه، فما أنتجه التربويون المسلمون في عصر زمني مضى أصبح تراثاً فكرياً تربوياً إسلامياً. أمّا الإسلام فهو رسالة عالمية عابرة للزمان والمكان. فمبادئ الإسلام في أصولها في الوحي الإلهي والهدي النبوي مبادئ معاصرة، وكذلك أحكامه وتوجيهاته، لكنّ التراث التربوي الإسلامي الذي قدّمه علماء الأمة اقترب من مبادئ الإسلام وأحكامه كثيراً أو قليلاً. وحين لا يكون الفكر التربوي منبثقاً من مبادئ الإسلام وأحكامه، ومهتدياً بهدي هذه المبادئ والأحكام، وإنما يكون منبثقاً من مبادئ أخرى تحالف ما يهدي إليه الإسلام، عندئذٍ لا يمكن أن يُعدَّ فكراً تربوياً إسلامياً.

وسادس هذه المنطلقات أنّ الفكر التربوي الإسلامي التي نعنيه ليس هو "التربية الدينية" أو "التربية الإسلامية" التي تكون عنواناً لمادة دراسية، تقتصر على بعض الجوانب الروحية والأخلاقية والتركيبية الوجدانية الفردية، أو تقدّم معلومات عن الإسلام، وليست هي مادة دراسية تعالج الفكر التربوي الإسلامي عند أحد علماء الإسلام في التاريخ، أو ما ساد من هذا الفكر في حقبة زمنية ماضية، أو منطقة جغرافية محددة، أو مذهب فقهي أو فكري... فقد اصطالحنا أن يكون ذلك تراثاً تربوياً إسلامياً...، فالفكر التربوي الإسلامي الذي نتحدث عنه، هو بناء فكري يعيد صياغة الشخصية الفردية والاجتماعية الحاضرة، الآن وهنا، في الجوانب النفسية والعقلية، ومن ثمّ بناء مجتمع يتمتع بالحيوية والفاعلية والإنجاز الحضاري المتميز، الآن، وهنا. والتربية بهذا المعنى هي تغيير في النفوس يكون الأساس لتغيير جذري في الجوانب المعنوية والمادية من حياة الفرد والمجتمع والأمة.

وسابع هذه المنطلقات أنّ أيّ فكر تربوي ينتجه مفكرو أية أمة إنّما ينبثق من مرجعية فكرية كُليّة، أو رؤية كُليّة للعالم، فالفكر التربوي الإسلامي ينبثق من مرجعية فكرية كُليّة تعبّر عن رؤية العالم الإسلامية، وهي التصور الكُليّ الذي يتبنّاه المجتمع

الإسلامي عن الوجود والحياة والإنسان، وما يتأسس عليه هذا المجتمع من معتقدات وقيم ونظم. وحين يستورد المجتمع الإسلامي فكراً تربوياً من رؤية أخرى للعالم، فإنَّ المشكلة في الأساس لا تكون في تفاصيل الفكر التربوي وجزئياته، وإنما تكون في الرؤية الفلسفية التي ينبثق عنها، والمرجعية الفكرية التي يحتكم إليها.

نأمل أن يُسهم كلُّ من الوَعْي بحالة الواقع التربوي المعاصر في المجتمعات المسلمة، والوعي بالمنطلقات اللازمة لإصلاح هذا الواقع، في ترشيد التخطيط للإصلاح المنشود، وفي سعيها الحكيم في تنفيذ خطته.

والله وليُّ التوفيق.